هل تحل الحروف محل الحركات العربية

حديث خطير مع المستشرق الالماني الدكتور مورتز مستشار
وزارة الخارجية الالمانية في تعويض الحركات بحروف عربية

كانت الساعة ٨ مساء لما قابلت الدكتور مورتز المستشرق الالماني المشهور (الذي يعرفه المصريون منذ كان في دار الكتب الخديوية) في ردهة الاستقبال في هوتيل النما في القدس. جلسنا نتحادث عن الآثار العربية الاسلامية بالحرم وأنواع الخط الكوفي المكتوب على جدران قبة الصخرة والمسجد الاقصى ثم سرد تاريخ الخط العربي منذ نشأته الى الآن كما ذكره عطوفة الامير شكيب ارسلان في الجامعة العربية. فقلت له إن جميع ما تفضلتم به منشور بالجامعة وقدمت له المفاتيح فسر بها كثيراً. ثم دخل الخادم بالقهوة وبدأنا نشربها فقلت له أحب أن اطلعكم على مشروع لإبدال حروف عربية بالحركات لتكون الكتابة كاملة كما تكلم والقراءة أسهل وأضبط فيسهل نشر اللغة الفصحى بين الامم عامة والعرب خاصة

فما كدت انتهي من كلامي حتى شرب فنجان القهوة جرعة واحدة وقال بلهف وشوق عظيمين أرني كيف ذلك! فعرضت عليه صفحة فيها الحروف العربية المقترحة بدل الحركات وما يقرب من خمسين كلمة مكتوبة بالطريقة العادية ثم مكتوبة على اسلوب حلت فيه الحروف محل الحركات وقلت له ان الاقتراح مبني على الشروط الآتية:

١ — أن تكون جميع حروف الابجدية عربية سواء منها الحروف الاصلية والحروف النائبة عن الحركات ليبقى الاتصال موجوداً بين الكتابة المصرية والكتابة القديمة

٢ — أن تكون الحروف العربية بشكل واحد سواء في اول الكلمة أم في وسطها أم في آخرها فلا يكون سوى ابجدية عربية واحدة

٣ — أن تكون الابجدية العربية بشكل واحد للطبع والكتابة فلا تتغير

٤ — أن تكون الابجدية العربية بصورة يسهل معها كتابة الحروف منفصلة أم متصلة حسب الرغبة بدون تغير في شكلها

٥ — أن تكون الحروف النائبة عن الحركات عربية الشكل قابلة الاتصال بما قبلها وما بعدها تسهيلا للكتابة

٦ — أن تكتب الكلمة كاملة كما هو لفظها الفصيح فلا تحذف حرفاً ولا تزيد آخر تخلصاً من الالتباس والتشويش

وبعد بيان هذا الاقتراح وشروطه وفوائده طلبت منهُ ان يحفظ شكل الحروف الاربعة الثابتة عن الحركات بوضع دقائق لتسهل عليه قراءة الكلمات المكتوبة حسب الاقتراح فلما وصلنا الى الكلمة الثالثة حتى وجدتهُ يقرأ بسرعة عادية كأنهُ تعود هذه الكتابة منذ القديم فسرَّ لذلك كثيراً وقال اني مسرور جداً لما أراهُ في هذا الشرق العربي من النشاط والتجديد الصحيح ولا أحذ التطرف في التجديد كإبدال الحروف الافرنجية بالعربية لانهُ خطأ محض فأبدت كلامهُ بأن الحروف الافرنجية تقطع علاقتنا بماضينا المجيد فضلاً عن انها ناقصة لا تؤدي جميع الاصوات العربية فنحتاج في اصلاحها إلى مجهود أعظم جداً مما نحتاج اليهِ في إصلاح حروفنا العربية وهذا الذي جعلني اشتغل فيما عرضتهُ عليكم خدمة للغة العربية وغيرة عليها وإن لم أكن من فرسان هذه الحلبة. على اني بدأت اشتغل بهذا الموضوع منذ ٩ سنوات حينما كنت أعلم التهجئة للاطفال في بدء حياتي التعليمية فوجدت ان التلاميذ يلاقون مصاعب جمة من تعدد صور الحروف لاربعة اشكال (الشكل الاصلي، اول الكلمة، وسطها، آخرها) فضلاً عن انهم يدرسون أبجديتين معاً، أبجدية النسخ ليقرأوا في الكتب وأبجدية الرقعة ليكتبوا ما يملى عليهم أي انهُ يجب على الطفل الذي لا يتجاوز عمرهُ ٦ سنوات أن يدرس: ٤ (٢٨ نسخ + ٢٨ رقعة) = ٢٢٤ شكلاً للحروف ثم ٣ أشكال للحركات ومثلها للتنوين أي ٢٣٠ شكلاً للحروف والحركات ؟ ! ! . . لعمر الحق إن هذا من أصعب الامور على الرجل الكبير فكيف بالطفل الصغير ؟ ! !

ولكن بهذه الطريقة لا يحتاج إلاَّ الى دراسة ٣٢ شكلاً للحروف فيكتب ويقرأ كلُّ حرف منها بشكل واحد بسهولة واتقان وبذلك نكون قد وفرنا على الطالب من الوقت (تقريباً) الذي يصرفهُ لتعلم اشكال الحروف المتعددة من غير ان يتقن القراءة والكتابة ولا ينكر أن في هذه الطريقة اقتصاداً عظيماً إذ يقتصد من المجهود والوقت اللذين يصرفهما المعلم والتلميذ فيستثمر ذلك المجهود المقتصد والوقت في الحصول على تقدم آخر

وقد وجدت كذلك أن التلاميذ بعد ما كانوا يقرأون بسهولة حينما كانت الكتابة مشكولة بفضل أساليب التربية الحديثة أصبحوا لا يضبطون إلاَّ قراءة كلمة او كلمتين فقط من السطر في الكتابة غير المشكولة . فقال متعجباً ذلك ؟ ! فقلت لهُ لا تعجب من حال

هؤلاء الاطفال الموقرة عقولهم بما لا تطيق وكلٌّ منا قد جرب بنفسه أنهُ كثيراً ما يحتاج لضبط لفظة جديدة نمر عليه الى مراجعة القاموس (ولا يخفى ما في ذلك من ضياع الوقت والمشقة) وليس ذلك لتقصيرنا في التحصيل او لقلة عنايتنا . بل لاننا نكتب نصف او ثلث الكلمة التي نتكلمها وليس عندنا سليقة نعتمد عليها في ضبط ما نريد قراءتهُ كما هي الحال عند الامم الاخرى. هذه حالنا مع لغتنا فكيف حال الاعجمي الذي يريد ان يتعلم لغتنا أو الاعجمي الذي من مصلحتنا ان نعلمهُ إياها ؟! فقد جربت ذلك مع عدة أشخاص أجانب علمتهم القراءة والكتابة العربية فكانوا يتعلمون بنجاح ما داموا يدرسون مشكولاً ولكنهم حينما يبدأون بقراءة الكتابة غير المشكولة يتركون تعلم اللغة العربية متذمرين شديدي الاستغراب لاهمال العرب اصلاح الكتابة العربية

وما فائدتهم من المثابرة على القراءة المشكولة ما داموا مضطرين للقراءة في الجرائد والكتب والرسائل وكلها غير مشكولة ؟! فقال ولماذا لا تكتبون بالحروف المشكولة ؟ . فقلت لهُ ان الكتابة المشكولة تقتضي نفقات عظيمة منها :

(١) أن كتابة كل سطر تعني كتابة ٣ سطور في آن واحد (نفس الكلمة ثم النقط والحركات التي فوقها ثم التي تحتها . (٢) لان الحركات تحتاج لرفع اليد حين الكتابة بعدد حروف الكلمة او اكثر . (٣) لان القارئ والكاتب يضطران لقراءة وكتابة ٣ سطور في آن واحد ولا يخفى ما في ذلك من الصعوبة وضياع الوقت . (٤) صعوبة طبع الحروف المشكولة من وجهة مطبعية فنية . على ان الكتابة بالاقتراح المعروض عليكم خلو من هذه الصعوبات كلها فضلاً عن محسناتها الاخرى التي منها :

١ — كفاية تعلم ٣٢ شكلاً بدل ٢٣٠؟؟؟!! .. (٦) قابلية هذه الحروف للكتابة المتصلة او المنفصلة حسب الارادة سواء في الطبع او الرسائل (٣) كتابة الكلمات كاملة معبرة عن أصوات جميع حروفها فلا خوف من خطأ القراءة او الكتابة (٤) ان الكلمة تكتب دون احتياج لرفع القلم باكثر من ربع المرات التي يحتاج اليها في الكتابة المشكولة (٥) نقرأ ونكتب سطراً واحداً لا ثلاثة كما هو الحال بالخط المشكول (٦) ان الكتابة بحسب هذا الاقتراح لا تبعدنا عن ماضينا لانها نسجه وليست غريبة عنهُ (٧) القراءة والكتابة بحسب هذا الاقتراح تزيل صعوبة الهمزة في اول الكلمة ووسطها وآخرها (٨) تتخلص من عدم مطابقة صوت التنوين للاشكال التي يكتب بها (٩) إن هذه الطريقة تسهل نشر اللغة الفصحى بضبط اللفظ الصحيح واتقانه بين اهل البلاد العربية وبين من يتعلمها من الاجانب (١٠) التخلص من صعوبة تمييز الالف المقصورة عن الالف العادية

ولو لم يكن لهذا الاقتراح من حسنات سوى اجتناب نفقات الكتابة الحاضرة لكفى به ولهُ حسنات اخرى عدا اجتناب تلك العراقيل والقيود المانعة لانتشار اللغة الفصحى حتى بين اهلها !

فابتسم وقال إذن انت تتكلم عن تجربة قلت ولولا ذلك ولولا غيرتي على اللغة العربية لما كلفت نفسي عناء البحث في هـذا الموضوع الخطير ٩ سنوات على اني سأعرضهُ على المجامع العلمية في البلاد العربية بعد مراجعته للمرة الاخيرة واحضار النماذج الكافية فقال أحسنت اقرأ لي ماذا كُتب في الجامعة عن تاريخ الحروف فبدأت بقراءة مقدمة المقالة وشرع يقرأ معي وبعد قليل توقف عن القراءة عمداً النظر في المقالة فنظرت اليهِ لأرى ما سبب توقفهِ عن القراءة إذ قرأ كلة على غير لفظها الصحيح فقلت لهُ عفوكم يادكتور إن مثل هذا السبب دعاني لهذا الاقتراح فاذا كنتم وانتم من أعلام اللغة العربية تضطرون لتضييع الوقت بامعان النظر حتى تقرأوا كلة بصورة صحيحة فكيف بالآخرين الذين لم يصرفوا لتعلم العربية ما صرفتم من الجهد والمثابرة وبديهيٌ ان سبب ذلك ليس تقصيراً منكم استغفر الله ان يكون ذلك بل هو نقص في طريقة الكتابة فقد قال الرصافي شاعر العراق في النشرة الثالثة لجمعية « تعميم معارف واصلاح حروف جميق » في الامبراطورية العثمانية ص ٢٨ ما نصهُ :

« درست العربية زهاء عشر سنين على اعلم رجل بها ومارستها طول حياتي وحفظت كثيراً من شعر الاوائل فاستعنت بهِ على ضبط مفردات اللغة وقلت الشعر حتى زعم بعض الناس اني اجيده كل ذلك وأنا اليوم اذا قرأت كتاباً او قصيدة من الشعر فلا آمن الخطأ عند قراءتها اللهم الاَّ في الكلمات التي كان لي سابق معرفة بها . هبني اعتصمت من الخطأ في اعراب اواخر الكلمات بما اعرفهُ من قواعد علم النحو ولكن بماذا اعتصم من الخطأ في اوائلها او اواسطها سواء اكانت من الاسماء او من الافعال الثلاثية ومصادرها فان امر هذه الكلمات كلها راجع الى السماع وما تعرفهُ من قواعد الصرف لا يجدي نفعاً ولا يغني من الرجوع فيها الى السماع شيئاً . فيجب اولاً أن أعرف كل كلة على حدة بمراجعة معاجم اللغة واحفظها في ذاكرتي حتى يتسنى لي أن أقرأها على وجه الصحة عند ما اصادفها في كتاب او في قصيدة وذلك مالا استطيعهُ أنا ولا غيري من الناس إذ لا شك ان الاحاطة بكل مفردات العربية مع ضبط الحركات متعذر على اقوى ذاكرة في الانسان . أجل إن ذلك متعذر إلا على السليقة التي كان العرب الخُلَّص بها يعرفون لغتهم وتلك السليقة معدومة

اليوم البتة . ولو كنت وحدي مخطئاً في القراءة لحملت ذلك على جهلي بالعربية وفرط غباوتي عنها ولكني حضرت مجالس علمائها الكبار وجالست منهم من يعد ابن بجدتها فرأيتهم يخطئون مثلي حذو القذة بالقذة

« فعرفت ان هذا الخطأ لم يكن من جهل وأدركت ان هنالك ثلمة يجب سدها وأن الأوائل قد أدركوا هذه الثلمة وفطنوا لها إذ حاولوا سد خللها بالشكل وجعل الكتابة مشكولة غير ان عملهم هذا كان خداعاً وسعيهم عاد مخفقاً لأن في الشكل من الصعوبة وخصوصاً على المؤلفين والمترسلين ما دعا الى تركه إلا في القرآن الذي قد يؤول الخطأ في قراءة الفاظه الى الكفر . ومن اجل تلك الصعوبة نرى كتب القوم غير مشكولة على أن هذه الصعوبة قد اصبحت متضاعفة في المطبوعات فإن علامات الشكل تستلزم متاعب جمة في الطباعة كما هو معلوم لدى اهل هذه الحرفة

« وقصارى القول ان فن القراءة عندنا من أصعب الفنون لتوقفه على انهم المتوقف على القراءة. وبهذا يظهر الفرق في هذه المسألة بيننا وبين غيرنا من الامم الراقية في العصر الحاضر وذلك اننا نفهم لنقرأ وغيرنا يقرأ ليفهم ؟ . . . . » معروف الرصافي

***

قد تركت بقية مقال شاعر العراق الاكبر لأن الاستشهاد به قد تم والمقام قد ضاق وان كان في بقيتها استشهاد اعظم على أنها من جهة اخرى توضح السبب الذي يعوق نشر اللغة الفصحى بين العامة حتى المتعلمين من ابنائها إذ ما الفائدة من قراءة الكتب والجرائد والمجلات العربية قراءة غير صحيحة ؟ !

ثم ترك الجريدة من يده وقال كل ذلك حسن فإذا توفقت في نشر هذه الكتابة في القدس فكيف يكتب أهل بغداد ودمشق والقاهرة فقلت له تعلمون ياحضرة الدكتور ان هذا الاقتراح يمس الامة العربية بل امم العالم الاسلامي بأسرها فلا بد من عرضه على المجامع العربية كما ذكرت لكم سابقاً وهذه الهيئات صاحبة الاختصاص في الموضوع تأخذ على عاتقها النظر في هذا الاصلاح من جميع وجوهه وطرق تنفيذه فقال أوتعتمد على المجامع ؟ ماذ تفعل المجامع ؟ أنا أعرف المجامع ودرجة تأثيرها . عندنا مثل الالماني يقول «من المستحيل أن تجمع الناس تحت ربطة واحدة » (كناية عن ان الناس لايجتمعون على رأي واحد)

فقلت حسن ما تقول فهل كان الخط معجماً في صدر الاسلام فقال كلا واول ما اعجم

من الحروف هو الباء. فقلت وما الدافع الذي جعلهم يجعلون الحروف فيما بعد؟ قال ضبطاً لالفاظ القرآن الكريم خاصة واللغة العربية عامة. فسألتهُ وهل كان الخط مشكولاً؟ قال كلاَّ بل شكل فيما بعد والدافع لذلك ايضاً هو الدافع السابق نفسهُ

فقلت وكيف اجتمع العرب والمسلمون تحت « بريطة » التنقيط (على حد المثل الالماني) ثم الشكل ولا يجتمعون تحت « بريطة » الحروف العربية الناتجة عن الحركات والدافع لهذا هو نفس الدافع للتنقيط والشكل والنية حسنة والعمل حسن

فسكت سكوت من لزمتهُ الحجة برهة ثم قال هل تفكر بأن اصحاب الجرائد والمجلات سيكتبون بهذه الحروف الاربعة الناتجة عن الحركات فقلت لهُ متى اقتنعوا بفائدتها وسهولتها للطبع والقراءة اتبعوها لان سهولة القراءة في الكتابة الجديدة سوف تكثر من قراء الجرائد والمجلات والكتب وطريقة الكتابة هذه لا تكلف اصحاب المطابع شراء حروف جديدة أو دراسة أبجدية جديدة كما حدث في تركيا لان الحروف موجودة من الاصل

ثم قال وكيف تكتب القرآن الكريم وتقرؤهُ فقلت لهُ بهذه الحروف لانها عربية كالحروف الاخرى. ثم قال تظنُّ ان رجال الدين يقبلون كتابة القرآن الكريم وقراءتهُ بهذه الحروف؟ فقلت وما المانع من ذلك أليست هذه الحروف هي نفس الحروف المطبوع بها القرآن الكريم الموجود الآن في جميع انحاء العالم وهل حينما نزل الوحي كتب بهذه الحروف؟ فقال كلا بل بالكوفي. قلت وهل كان القرآن منجماً كما هو الآن؟ قال كلا بل اعجموه وشكلوهُ حينما اختلط العرب بالاعاجم وخيف ان يعلق فهم القرآن الكريم على المسلمين. فقلت ونحن نفعل مثلما فعل آباؤنا في صدر الاسلام لضبط الفاظ القرآن بصورة صحيحة وعدم الاشتباه بقراءتها. فقال انك ستلاقي صعوبات جمة في هذا السبيل وان كانت النية حسنة والعمل حسن فقلت لهُ « لا بد دون الشهد من ابر النحل » ثم استأذنتهُ بنشر الحديث باحدى المجلات العربية خدمة للغة العربية فاذن بكل لطف ورغبة في ذلك وكان العقرب يعانق الدقيقة العاشرة بعد الساعة الثامنة مساء فاستأذنتهُ بالانصراف شاكراً لطفه وخدمتهُ اللغة العربية بجد وثبات فقال لقد صرت ممنوناً جداً لهذه المقابلة والبحث في اهم موضوع يلذ لي البحث فيه وارجو ان توافيني بالحالات التي يمر بها هذا الاقتراح بعنواني هذا وقدم لي بطاقة باسمهِ وعنوانهِ فشكرت لهُ ذلك

جزيل الشكر وقت مودعاً القدس ابن ابي سلمى